من دار إلى دار
للدكتور طه حسين
قال أستاذ البيان لتلميذه:
"زعموا أن البيان يعين صاحبه على أن يؤدي المعنى بعبارات مختلفة فيها الحقيقة والمجاز، وفيها التشبيه والاستعارة، وفيها الكناية والتمثيل وفيها ما نعلم وما لا نعلم من ألوان الجمال اللفظي؛ هذه التي تأتي عن قصد، وتأتي على غير عمد، كأنما يوحى بها إلى الكاتب المبين. ولكنك تعلم أنا لا نذهب في فهم البيان هذا المذهب، ولا نقصد به إلى هذا النحو، وإنما نذهب به مذهبا أعم من هذا وأشمل، كان يذهب إليه القدماء حين كانوا يتخذون البيان وسيلة إلى أداء ما يعرض للكاتب من الأغراض والمعاني في أشد الألفاظ ملاءمة لأغراضه ومعانيه. ولعلك تذكر أنهم كانوا يذهبون في تعليم الطلاب فن البيان مذهبا طريفا كثيرا ما كان يضيق به المتكلفون من أصحاب الأخلاق والذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الفلسفة".
قال التلميذ:
"نعم، هو هذا المذهب الذي كان يحمل الأستاذ على أن يطرق أمام تلاميذه ويحمل تلاميذه على أن يطرقوا أشد الموضوعات تناقضا وأعظمها اختلافا فيؤدوها كأنهم يؤمنون بها أقوى الإيمان، ويقتنعون بها أشد الاقتناع. وكانت هذه بدعة استحدثها السوفسطائية ثم ورثها عنهم أصحاب البيان فلم يغيروها، وإنما أمعنوا فيها إمعانا؛ وكتاب أرسطاطاليس في الخطابة حافل بذلك. وقد أبلى الجاحظ في هذا النحو من تعليم البيان بلاء حسنا، وقد ألف أساتذة اللغة والبيان في هذا النحو من الأدب كتبا لا تخلو من لذة ومتاع؛ فيها مدح الشيء الواحد وذمه، وفيها مدح النقيضين وذم النقيضين، وفيها...".
قال الأستاذ:
"حسبك، فقد أرى أن أشهر الصيف وما كان فيها من ارتحال وطواف، ومن اختلاف البيئات عليك وترامي أطراف الأرض بك لم تنسك ما أنفقنا فيه من أشهر الربيع من الدرس والبحث؛ فأنا نريد الآن أن نبتدئ من حيث انتهينا، ونمضي من حيث وقفنا، ونعود إلى ما كنا فيه من التمرين. فاختر لنا موضوعا واحدا يثير الضحك ويثير الرثاء، يثير الشماتة ويثير الرحمة، يبعث في النفوس مرحا وابتهاجا ويملأ القلوب كآبة وحزنا، وهو على ذلك كله واحد لا يتغير، وإنما تتغير وجهة النظر إليه ونحو التفكير فيه؛ وأن الشيء الواحد قد يخالف نفسه ويباينها باخلاف الجهات التي تنظر إليه منها، والطرق التي تسلكها إلى فهمه والوصول إليه".
قال التلميذ:
"فإني لست في حاجة إلى أن أجد وأكد، أو ألتمس وأختار؛ لأن الموضوع ماثل أمامي شهدته أمس فأثار في نفسي هذه العواطف المختلفة، وبعث في قلبي هذه الألوان المتباينة من الشعور. وكان المتعمقون في البيان يسرفون على أنفسهم وعلى تلاميذهم وعلى الفن حين كانوا يجتنبون ما يحدث بين أيديهم من الحوادث، ويختلف عليهم وعلى أمثالهم من الخطوب، ويلتمسون الموضوعات من عند أنفسهم يخلقونها خلقا؛ فيصيبون حينا ويخطئون أحيانا، ويعيشون في عالم الخيال على كل حال. مع أنهم لو نظروا فيما حولهم من الأحياء والأشياء لما احتاجوا إلى هذا الكد والجد، ولما بعدوا بأنفسهم وتلاميذهم عن مواضع الحق والصدق والصواب، ولما نقلوا الأدب من هذا العالم المعروف الذي يضطرب فيه إلا الوهم، ولما قطعوا الصلة بين الأدب الذي يجب أن يكون صورة الحياة وبين الناس الذين يجب أن يتخذوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياتهم كما هي أو كما يحبون أن تكون، أو كما يكرهون أن تكون".

قال الأستاذ:
"هات موضوعك ولا تمعن في الاستطراف؛ فقد علمت وقد أنبأتك بأني علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع".
قال التلميذ:
"فإن الموضوع الذي شهدته أمس موضوع يثير من المعاني ما لم تشأ، ويلهم ما أحببت من الخواطر ما لا تحب؛

يبعث الابتسام إن شئت أن تبتسم، ويبعث العبوس إن أحببت أن تعبس. وقد يكرهك على الابتسام وأنت عابس، وقد يكرهك على العبوس وأنت مبتسم، وقد لا يقف بك عند الابتسام بل يغرقك في الضحك إغراقا، وقد لا يقف بك عند العبوس بل يدفعك إلى البكاء دفعا. وقد يقفك من الابتسام والعبوس ومن الضحك والبكاء موقفا بين ذلك؛ فيه هدوء وعجب، وفيه رضا وسخط يضطربان في النفس ولا تظهر آثارهما على الوجه".

قال الأستاذ:

"كفكف من هذا السيل اللفظي المتدفق، واقصد بنا إلى ما نريد؛ فقد علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع في المعاني، وقد علمت أيضا أنها لم تنسك دروس الربيع في الألفاظ، وقد علمت أنك ما زلت قادرا على أن تجيد هذا الفن الذي يمكن الكاتب أو المتكلم من أن يقول فيطيل دون أن يؤدي معنى أو يدل على شيء".

قال التلميذ:

"وكأنك تنكر هذا الفن أو تسخر منه أو تزعم أن جمال الكلام لا يأتي من الكلام نفسه، وأن الألفاظ ليست على حظ من الجمال الذاتي الذي يأتي من اتساقها والتئامها وانسجامها".

قال الأستاذ:

"دعنا من كل هذا العبث واقصد بنا إلى ما نريد؛ فقد نعود في يوم آخر إلى حديث الألفاظ والمعاني وما يجب أن يكون بينهما من صلة، وما يجب أن يقسم بينهما من الجمال. ولكن اذكر إن كنت نسيت أنك شهدت أمس موضوعا واحدا يثير الضحك ويثير الرثاء فحدثني عن هذا الموضوع؛ كيف أثار الضحك؟ وكيف أثار الرثاء؟".

قال التلميذ:

"وكيف أنسى موضوعا لا يمكن أن يعدو عليه النسيان؟ وما رأيك في أديب خلق ليكتب ويقول فيقضى عليه فجأة ألا يكتب ولا يقول؟ خلق ليفكر ويرقى بتفكيره إلى السماء فيجذب إلى الأرض جذبا، ويكره على البقاء فيها إكراها، ويؤخذ بالحياة مع أهلها أخذا؛ خلق ليقرأ فيقضى عليه فجأة ألا يقرأ، خلق أطول الناس بالكلام لسانا، وأجرأهم بالقلم يدا، وأسرعهم إلى المعاني نفسا، وأخصبهم بالخواطر ذهنا، فيعقد لسانه وتغل يده وتقيد نفسه ويجدب ذهنه. خلق واضح الجبين باسم الثغر مبسوط الأسارير، تضطرب في نفسه الغنية معان غزيرة فيظهر اضطراب هذه المعاني على وجهه، فإذا هو متحرك الهيئة دائما لا تكاد تنظر إلى محياه حتى ترى له شكلا جديدا يصور معنى جديدا يضطرب في تلك النفس التي لا تهدأ ولا تستقر، فيقضى على هيئته أن تسكن، وعلى وجهه أن يتخذ صورة بعينها جامدة مستقرة لازمة لا تتحرك ولا تنتقل ولا تزول".

قال الأستاذ:

"وماذا تنكر من أمر هذا الأديب؟ إنما هو صورة من صور بروميثيوس الذي كان حركة متصلة منتجة خصبة، سريعة لبقة، تعلم الناس في غير انقطاع، وتسلك إلى تعليمهم كل السبل، وتبتغي إليه كل وسيلة، حتى لم تتحرج من أن تختلس نار الآلهة اختلاسا فتهديها إلى الناس وتمنحهم بذلك الحضارة والعلم والفن وتغنيهم أو تكاد تغنيهم عن (زوس) وأصحابه من سكان الأولمب. فغضب عليه زوس وضاق به وأزمع أن يعاقبه على ما جنى، فشده إلى صخرته تلك في القوقاز وقضى عليه أن يظل طوال الدهر مغلولا. وقد كانت الحركة جوهره فأصبح عاجزا، وقد كانت القدرة حقيقته فأصبح لا يملك لنفسه ولا للناس شيئا، لا يدفع عن نفسه ولا عن الناس شيئا؛ يزوره النسر الذي وكل به من حين إلى حين فينهش كبده نهشا، وهو يرى ذلك ويألم له أشد الألم ولا يستطيع له دفعا؛ يدعو الحرية فلا تستجيب له لأن زوس قد كفها عنه، يدعو الموت فلا تستجيب له لأن الأقدار قد كتبت له الخلود. وقد صور إيسكيلوس حال بروميثيوس هذا تصويرا بديعا ألهم من جاء بعده من الكتاب والشعراء، والمثالين والمصورين والموسيقيين. وقد أثار إيسكيلوس في تصويره ضحك الذين قست قلوبهم، ورثاء الذين رقت نفوسهم، كما أثار معاني أخرى أقوم وأخصب وأبقى من الضحك الرثاء".

قال التلميذ:

"لم أقصد إلى بروميثيوس ولم أفكر فيه، وهل تظن أني رأيته أمس؟ ولم أذهب إلى القوقاز وإنما أنا معك في القاهرة، ولعلي إن ذهبت إلى القوقاز فلا أرى الصخرة ولا قرينها فلم يحدثنا عنهما أحد من الذين زاروا تلك البلاد

بعد إيسكيلوس".
قال الأستاذ:
"فهي صورة من صور بروميثيوس قصدت إليها واتخذتها نموذجا لهذا النحو من البيان كما كان يفعل القدماء".
قال التلميذ:
"لم أفكر في بروميثيوس ولم أقصد إلى تقليد إيسكيلوس، وإنما هو شيء شهدته أمس".
قال الأستاذ:
"وماذا شهدت؟".
قال التلميذ:
"شهدت صديقنا فلانا وقد أرادت له ظروف الحياة أن ينتقل من دار إلى دار".
قال الأستاذ وقد أغرق في الضحك:
"ما أبعد هذه الصورة التي تحدثني عنها من تلك الصورة التي كنت أذكرك بها! وأين يكون صديقنا فلان حين تنقله الظروف من دار إلى دار، من بروميثيوس حين يشده كبير الآلهة إلى صخرة القوقاز؟".
قال التلميذ:
"فقد أثار صديقنا فلان في نفسك الضحك لأن صورته ذكرتك بتلك الصورة الضخمة العظيمة التي نصبها أبو التراجيديا للناس؛ فلما انحدرت منها إلى هذا الشخص الضئيل النحيل الذي كان يقيم في طرف من أطراف القاهرة فانتقل إلى طرف آخر، لم تملك نفسك أن أغرقت في الضحك إغراقا. ومع ذلك فلو قد رأيته أمس كاسف البال، كئيب الوجه، محزون القلب، معقود اللسان، مقيد الرجل، مغلول اليد، محصورا بين طائفة من الأثاث وأدوات البيت، مختلفة أشد الاختلاف، متباينة أشد التباين، فيها الكبير والصغير، فيها الأنيق والدميم، قد جمعت حوله تجميعا، وكدست حوله تكديسا، وقد وضع هو بينها وضعا على كرسي أو شيء يشبه الكرسي، وقيل له: أقم لا ترم حتى يأذن أو يأذن العمال لك بالانتقال؛ وهو مقيم لا يريم، لا يستطيع أن يقول شيئا، ولا ينبغي أن يقول شيئا لأنه لا يفهم مما حوله شيئا. يريد أن يخلو إلى نفسه ويعيش مع خواطره، وإذا هو مصروف عن ضميره صرفا بهذه الأصوات العنيفة المختلفة التي تأتي من كل مكان، والتي تؤلف من حوله نوعا فجا فظا غليظا من الموسيقى؛ فيه أصوات العمال على اختلافها، واصطدام الأثاث ووقعه على الأرض، وهذا الصوت الذي يغيظ ويهيج الأعصاب ويأتي من جر الأشياء على الخشب حينا وعلى الحجر حينا آخر، وخفق الأقدام وتداعي الخدم، وتناهي الحمالين وما شئت مما يحصر وما لا يحصر من هذه الضوضاء الغريبة التي يمتلئ بها البيت حين تفارقه الحياة، ويمتلئ بها البيت حين تدخله الحياة".
قال الأستاذ محزونا مشفقا:
"وكم قضى المسكين من وقت على هذه الحال؟".
قال التلميذ:
"يوما كاملا؛ نصفه في ذلك البيت الذي كان يخلو، ونصفه في هذا البيت الذي كان يعمر. ولقد هممت أن أتحدث إليه في الانتقال من دار إلى دار، وأن أذهب معه مذهب الأدباء في هذا الحديث، فأخذت أذكر له وقوف الشعراء على الأطلال وإحيائهم لما يثير هذا الوقوف في نفوسهم من الذكرى وما يسفح على خدودهم من العبرات، وجعلت أروي له: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)... وأنشده: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد)... وأتغنى له بدمنة أم أوفى... وأروي له ما قال ذو الرمة في ربع مية، واستطردت به إلى ما قال أبو تمام في عمورية بعد أن دمرها المعتصم تدميرا. فلم أجد منه نشاطا ولا انبساطا، وإنما قال في صوت المحزون ولهجة المتعب المكدود: وما أنا وذاك؟ لقد تنقلت في حياتي بين دور كثيرة؛ من حوش عطى، إلى درب الجماميز، إلى شق الثعبان، إلى مونبلييه، إلى باريس، إلى السكاكيني، إلى الحوياتي، إلى هليوبوليس، إلى الزمالك؛ فأقسم ما وجدت ساعة الانتقال لحظة من هذه اللحظات الحلوة التي يغنيها الشعراء غناء جميلا في شعر جميل أودع فيها دارا أحببتها وبلوت فيها الحلو والمر من ألوان الحياة، وأستقبل فيها دارا لا أعرفها ولا أعرف ما ستتكشف لي فيها الأيام عنه من الأحداث والخطوب.

إنما هو الضجيج والعجيج وازدحام الأدوات والأثاث، وصياح العمال والحمالين وخفق الأقدام، وجر الأثقال، ومجلس ضيق كهذا المجلس الذي ترى، وساعات طوال ثقال كهذه الساعات التي رأيت، ثم وصل لما انقطع من الحياة، وسعي فيما أهمل من العيش، وانغماس في هذه الحركات العنيفة التي لا موضع فيها للشعر ولا مكان فيها للغناء. هنالك عدلت به عن هذا النحو من الأدب إلى نحو آخر، فأخذت أتحدث إليه عن قول أبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

وأخذت أسأله عن أحب منازله إليه وآثرها عنده، فلم يحتج إلى تفكير ولا تقدير، وإنما قال في صوت حزين يشوبه الابتسام: أحب دار وآثرها عندي إنما هي تلك التي درجت فيها طفلا في قرية من قرى الريف، وهذه الدار التي نشأت فيها شابا في حوش عطى، ثم هذه الدار التي أقمت فيها طالبا للعلم في شارع من شوارع الحي اللاتيني في باريس. ولكن بشرط ألا أعود إلى الإقامة والحياة في واحدة منها؛ هي حبيبة إلي كريمة أثيرة عندي حين أذكرها وحين ألم بها الإلمامة القصيرة اليسيرة. فأما أحب الدور إلي وآثرها عندي الآن فهي هذه التي تراها مضطربة مختلطة مملوءة بالضجيج والعجيج والصياح من كل نوع، وتراني فيها أسيرا سجينا بين هذه الأدوات المختلطة المكدسة حولي لا أستطيع حركة ولا انتقالا لأنها ستستقيم لي بعد أيام، وستحمل إلي فيها ساعات الحياة من ألوان العيش ما لم أذق بعد. ويكفي أن أذكر تلك الدور كلها وكيف انتقلت من إحداها إلى تلك التي تليها حتى انتهيت إلى هذه الدار، لتعلم أني كغيري من الناس خليق ألا أمنح تلك الدور من نفسي إلا هذا القدر الذي يقترن بالذكرى. ومن يدري لعلي أن أنتقل من هذه الدار التي تراها إلى دار أخرى أوثرها عليها وأختصها بالتفضيل؛ إنما نترك في كل دار نسكنها قطعة من قلوبنا، ولكنك تعلم أن قلوبنا لا تنقص بما نفرق من أجزائها بين الدور، وإنما تكمل وتستكثر من الثروة بهذه الذكريات التي نحملها معنا إلى أن يأتي هذا اليوم الذي ننتقل فيه إلى منزل آخر لا نؤثره ولا يؤثرنا، لا نحبه ولا يحبنا، لا نسعى إليه ولا يسعى إلينا، وإنما نكره عليه إكراها، ويكره هو علينا إكراها...".

هنالك أحسست مرارة الحديث فهممت أن أتحول بصاحبي إلى حديث آخر، ولكن أمور الدار وترتيبها كفتني مؤونة هذا الانتقال؛ فقد أقبل المقبلون يرفعون هذا وذاك، يتصايحون ويتبادلون بينهم الأمر والنهي.

قال الأستاذ:

"لا بأس بهذا الموضوع، ولكن على أن تعالجه علاجا آخر وتعرضه عرضا فنيا يثير الضحك ويثير الرثاء؛ وإنما يأتي ذلك حين تقصد إليه قصد صاحب الفن وتبث فيه جزءا من أجزاء نفسك يمنحه شيئا من الحياة".

طه حسين